الرّواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التّحرير
صراع اللّغة والهوية

الأستاذة: نوال بن صالح
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

تمهيد:

إذا كان الاستعمار قد أفاد بعض البلاد العربية حين نقل إليها الطباعة والصحافة والمجالس العلمية ونحو ذلك، فإنه في الجزائر كان على عكس ذلك تماما، إذ لم يأت لينشر حضارة وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب، ويزوّر تاريخه ويحطّم كيانه ويستغلّ ثرواته، وبذلك تعرضت شخصية الأدب الجزائري إلى هزات عنيفة كادت تفقدها كل المقومات والملامح، لأنها لم تستطع أن تواجه الغزو الثقافي بنفس العتاد الذي جاء به الاحتلال في عنفوانه وانتقامه. ولم تستطع أن تطور ذاتها بالطريقة التي يفترضها تخطيط العدو وبرامجه في الهدم والتسلط وإزالة المعالم القومية[1]. لقد مثلت الانتكاسة السياسية ثم الثقافية والفكرية والأدبية فترة انكماش ثقافي أشبه بالغيبوبة، شعر فيها الإنسان الجزائري بالغبن والانكسار المادي والمعنوي وهو ما شمل الكتاب والأدباء الذين هم بطبيعتهم أكثر إحساسا بالمعاناة الوطنية بكل امتداداتها[2] لكن مجموعة الأحداث الكبيرة التي ظهرت في الجزائر متخذة لها من السياسة عنوانا، ومن الوطنية شعارا ومستهدفة جمع الشعب تحت راية واحدة نحو تحقيق آماله في الاستقلال والحرية هي التي أدت إلى حركة نشطة في الأدب الجزائري سيما في الرواية المكتوبة بالفرنسية.

1–إشكالية تصنيف الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

يتميز الأدب الجزائري الحديث عن بقية آداب اللغة العربية بخاصية منفردة قلّما نجدها مجتمعة في أدب العروبة قديما وحديثا ويتمثل ذلك التمايز في جملة الخصائص المركّبة المعقّدة، أنبتتها صيرورة تاريخية لا مناص منها فقد تدخلت في تشكيل

الأدب الجزائري على مرّ العصور ثلاثة عناصر: العنصر المحلي، العنصر العربي، والعنصر اللاتيني الفرنسي، وانصهرت العناصر الثلاثة لغة وحضارة عبر التاريخ وأثمرت في النهاية أدبا" جزائريا" قبل أن يكون لاتينيا فرنسيا، وإن نطق بالفرنسية، وقبل أن يكون عربيا أو محليا وإن نسج أحداثه وشخوصه من عبقرية الأرض والعروبة، وبناء على هذا التركيب العجيب، توحدت عناصر اللغة والفكر والبيئة والتاريخ والإنسان الجزائري في صورة شديدة التعقيد والثراء.

لقد شكلت الكتابة باللغة الفرنسية محورا هاما في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، وتاريخ الأدب العالمي يزخر بأمثلة عديدة من الكتاب الذين كتبوا بلغة غير لغتهم الأصلية، إما طواعية منهم أو أنهم كانوا مضطرين لذلك فرنسيين أو إنجليز، ومن بين هؤلاء جبران خليل جبران وجورج شحاتة من لبنان، وإدوارد سعيد وجبرا إبراهيم جبرا من فلسطين.

في عام 1953 قامت مجلة الأخبار الأدبية Les Nouvelles Littéraires باستفتاء حول هذا السؤال: هل هناك مدرسة أدبية في شمال إفريقيا؟ وواضح من السؤال أنّ واضعه يتصور أن الأدب الذي ينتجه كتاب شمال إفريقيا باللغة الفرنسية إنما هو جزء من الأدب الفرنسي. ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقا بأن يعد مدرسة قائمة بنفسها في مدارس الأدب الفرنسي. وكانت الأجوبة التي أجاب بها كتاب شمال إفريقيا عن هذا السؤال تشير جميعها إلى أن تسمية الأدب بأنه مدرسة جديدة من مدارس الأدب الفرنسي هو إطلاق اسم خطأ على واقع لا شك فيه، وهو هذا الازدهار في أدب المغرب العربي عامة، وفي أدب الجزائر خاصة. ومعنى ذلك، أن الأدب المغاربي ومن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ليس من الأدب الفرنسي في شيء وإنما هو أدب عربي كان مضطرا إلى استعارة اللسان الفرنسي، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل غيرهم[3]. وإلى هذا أشار محمد ديب في حديثه عن ثلاثيته:" بل قولوا أدبا قوميا يظهر الآن في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة. غير أن هذا الأمر له دلالة بليغة هو أن هذا الأدب يكتب باللغة الفرنسية في بلاد ذات تراث إسلامي لا تزال تحاول ولو في كثير من العناء أن تقدم إنتاجا أدبيا باللغة العربية"[4] فهؤلاء الكتاب العرب قد عرّفوا فرنسا بأساليب التجهيل التي اتبعتها في الجزائر وهي أم تنتزع منهم أداة التعبير باللغة الأم، وأن تضع بين أيديهم أداة أخرى هي

اللغة الفرنسية، لا حيلة لهم في الإعراض عنها إذا أرادوا أن تدور ألسنتهم بكلام أو أن تجري أقلامهم بكتابة. يقول الدكتور سامي الدروبي في مقدمة ترجمته لثلاثية محمد ديب: "... فلا عجب والأمر كذلك، أن يكون أبرز وجوه المأساة التي يحسها أدباء الجزائر أنهم محمولون على الكتابة بلغة ليست هي اللغة التي خلقت لتعبر عنهم، وليس يعزيهم عن ذلك أن يكونوا قابضين على ناصية هذه اللغة الفرنسية، وإنها بين أيديهم طيّعة طواعية تشبه أن تكون طواعية المذلة"[5] هكذا يحس أدباء الجزائر الذين أراد الاستعمار أن يكون في لسانهم عقدة. يقول مالك حداد:" لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار أن يكون عندي هذا النقص، لا أستطيع أن أعبر بلغتي"[6] فهو يحس بعجز وغربة كلما أراد أن يعبر عن أفكار وآمال جزائرية بلغة فرنسية. وإذا كان مالك حداد يشعر بهذا النقص تجاه الفرنسية، فإن غيره ينظر إليها سلاحا فتاكا بيده وليست انتماء للثقافة الفرنسية. من هؤلاء محمد ديب الذي يقول:" إن كل قوى الخلق والإبداع لكتابنا وفنانينا بوقوفها على خدمة إخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من أسلحة المعركة... ولأسباب عديدة فإنني – ككاتب– كان همي الأول هو أن أضم صوتي إلى صوت الجموع".[7]

2– الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية والثورة التحريرية:

المثير في الكتابة الروائية هذا التباعد بين المكتوب باللغة العربية والمكتوب باللغة العربية والمكتوب باللغة الفرنسية سواء في الجانب التعبيري الصف أم في القيم والمحمولات اللغوية الثقافية، هذا إلى جانب انتشار الرواية المكتوبة باللّسان الفرنسي في العالمين العربي والغربي أكثر من الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية. لقد ظهرت الرواية في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية قبل أن تظهر باللغة العربية. هذه الأسبقية التاريخية في الظهور أثرت على البعد الجمالي والفني إلى جانب ما تضمنته الرواية باللسان الفرنسي من تراكم ثقافي، أكسبها القوة التواصلية مع الآداب الغربية والمغاربية، من هنا اكتسبت الرواية باللغة الفرنسية قيمتها الإعلامية والدعائية.

لقد شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة، أثارت حولها جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين، منهم من عدها رواية عربية باعتبار مضامينها الفكرية والاجتماعية وغالبية النقاد اعتبرها رواية جزائرية مكتوبة بالفرنسية، باعتبار أنّ اللّغة هي الوسيلة الوحيدة التي يكتسب بها الأدب هويته، ثم إن

الكتابة الروائية بالفرنسية قد ساهمت في نمو الأدب الفرنسي، أكثر مما ساهمت في إخصاب الأدب العربي.

2- 1- أثر الثورة الجزائرية في الكتابة الروائية:

لقد كان للاستعمار الفرنسي على الجزائر والذي امتد من عام 1930 إلى 1962، أثر على المجتمع الجزائري بنواحيه المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية، وهكذا كان الأدب الجزائري والرّواية على وجه الخصوص رهينة هذا الواقع الذي سيطر عليه الاستعمار طويلا فكان الروائيون الجزائريون شهودا على أوضاع مجتمعهم متفاعلين مع ما يجري حولهم.

شكّلت الثورة نقطة تحول أساسية في مسير التجربة الروائية الجزائرية، حيث أصبح الحديث عن الثورة والنّهل منها اعتبارا ضروريا في الكتابة الروائية، سواء بسرد بطولاتها أم بتشكيلها، وحتى وإنّ شكلت توجهات تنتقد منطقها ونتائجها وتطعن في إنجازات بعض القائمين بها، فإنها تجسد تصور البطل النموذجي وصناعة الوعي على الرغم من أن التعامل مع الثورة وصف بالسطحية أحيانا والمثالية والاحتفالية التي لم تتجاوز حدود الانعكاس.[8] أي إنّ التعامل مع موضوع الثورة لم يكن تعاملا تاريخيا كما لم يكن هناك استغلال إبداعي للثورة بإعادة إنتاج أحداث ومواقف وبطولات تستمد مرجعيتها من التاريخ الثوري باعتبار أنّ الرّواية عمل تخييلي يوهم بالواقع ولا يعكسه، وإن كان يتجاوزه، ويتمثل التجاوز علة مستوى الصياغة وبناء الشخصية ورسم الحدث وإقامة علاقات قائمة أساسا على عمليات لتحيين القيم التي ينطلق منها السّارد.[9]

وهكذا وجد الروائيون الجزائريون أنفسهم في مواجهة لغة الجانب" الأقوى" (آنذاك) فكانت اللغة الفرنسية سبيلهم لمحادثة هذا الطرف في ظل الظروف التي فرضها هذا المستعمر على اللغة العربية بصفتها اللغة الأم ولأن اللغة تعتبر الجزء الأهم من مقومات هوية الأمة فقد استعملت فرنسا جميع الأساليب للقضاء على اللغة العربية، فقد كان غزو فرنسا للجزائر غزوا شاملا كان يهدف إلى التغلغل في أرض الجزائر واحتلالها احتلالا شاملا ودائما، ولم يكتف منه الغزاة بالسيطرة على أراضيها ونهب خيراتها وإذلال أهلها فحسب، وإنما يذهبون فيه إلى أبعد من ذلك بالنيل من الأسس المعنوية والمميزات الحضارية للشعب الجزائري والطعن في عقيدته وتشويه قيم تراثه وطمس معالم

شخصيته. كان على منتجي الرواية باللغة الفرنسية، خلق مسافة لتأمل التاريخ ونقد الذات، ونقد الآخر. فمن خلال هذه المسافة وفي ظل هذه المساحة، بدأ الإعلان عن نص روائي جديد يبشر بإنسان جديد وبعقل جديد، قلب موازين البطولة الروائية. فإذا كان الآخر " الفرنسي" هو المركز في الرواية الاستعمارية فـ" الأنا" أي" الأهلي" هو الهامش. وفي هذا النص الجديد ولد إنسان جديد.

2- 2- رصد لأبرز كتاب الرواية الثورية الجزائرية باللغة الفرنسية:

كثير هم الكتاب الجزائريون الذين كتبوا عن الثورة الجزائرية: عن الفترة التي سبقتها وخلال اندلاعها وحتى بعد الاستقلال وتصنف جميع هذه الروايات ضمن أدب المقاومة أو أدب الثورة الجزائرية، ولعل أبرز هؤلاء الروائي الجزائري: مولود فرعون الذي كتب" ابن الفقير" Le fils du pauvre الصادرة سنة: 1953 بيّن فيها كيف يكون الطبع الحقيقي للرجل القبائلي، حيث يولد الطفل في هذه المنطقة، من أجل المعركة في سبيل الحياة، أما الجانب الآخر الذي تصوره الرواية وهو الجانب الذي يصف الظروف التي مهدت لثورة التحرير، إنه الصراع من أجل إجادة لغة غريبة وثقافة غريبة حيث يشعر" فورولو" Fouroulou بنفسه غريبا في الثانوية الفرنسية ويخشى الطرد لأتفه الأسباب. تعد رواية" ابن الفقير" سيرة ذاتية تصف طفولة الكاتب ومراهقته. أما روايته: " الأرض والدم" La Terre et le sang الصادرة سنة: 1957 فتقع أحداثها ما بين الحربين العالميتين وتنتهي في عام 1930 يعاني فيها البطل: عامر معاناة شديدة بسبب هجرته إلى فرنسا طلبا للعمل ليعود إلى قريته مع زوجته الفرنسية ولكنه لا يتمكن من التأقلم مع واقعه الجديد في قريته الصغيرة فلا هو تمكن من التأقلم في الغربة ولا تمكن من الحياة في قريته من جديد إلا بصعوبة كبيرة. ويعدّ مولود فرعون نموذجا لجيله جمع في ذاته عالمين وثقافتين وصور المشكلات والمتناقضات التي زخرت بها مرحلة يقظة الوعي الوطني للجزائريين في تلك المرحلة المرتبطة بالكفاح من أجل الاستقلال.

كاتب آخر كانت له بصمة واضحة في أدب المقاومة، إنه محمد ديب الذي ولد بتلمسان عام: 1920 وهو مؤلف الثلاثية المسماة" الجزائر"[10] ولايزال اسمه يقترن بهذا العمل الأدبي المتميز وهو الثلاثية: الدار الكبيرة La Grande maison 1952، الحريق L' incendie 1954، النول Le métier a tisser 1957 ولا يكاد يذكر اسم محمد

ديب إلا وذكرت معه الثلاثية ويرجع أمين الزاوي[11] سبب هذا الارتباط بعمل أدبي واحد وشهرته على حساب أعمال محمد ديب الكثيرة إلى:

– تعلق القارئ المسلم– على حد قول محمد ديب نفسه– بعمل واحد، عمل واحد يتبناه ويستجيب لرغباته، والذي يتحول فيما بعد إلى" كتاب مقدس" وهذا يجيء من جراء التربية الدينية، حيث يتلخص كل شيء بالنسبة للإنسان المسلم في شيء واحد هو القرآن.. وبالنسبة للقارئ الجزائري(والعربي) تمثل" الدار الكبيرة" هذه الحالة.

– الاحتفاء السياسي الذي كان يقابل به هذا الأدب من قبل الأوساط الثورية والديمقراطية والثورية واليسارية في أوربا، والمعادية للاستعمار وأساليبه الهمجية إذ كان الاحتفاء في كثير من المرات يتجاوز الأدب إلى الاحتفاء بالثورة الجزائرية.

– الالتزام السياسي وارتباط اسم محمد ديب بالثورة الجزائرية من خلال الممارسة السياسية.

– البعد الوطني الاجتماعي الذي حملته هذه الثلاثية، وتنبؤها التاريخي بالثورة الجزائرية من خلال تعرية جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المستعمرة.

– كونها أول عمل يشكل بحق أدبا وطنيا متميزا حقق القطيعة النهائية مع أدب" مدرسة الجزائر" الذي كانت تنتجه أقلام الكتاب الفرنسيين الذي كانت تنتجه أقلام الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في المستعمرة.

– أما على الساحة العربية فقد كانت ترجمة الدكتور سامي الدروبي للثلاثية، تلك الترجمة البديعة، عاملا آخر من عوامل شهرة هذا العمل في الشرق بعد أن حقق شهرة واسعة في الغرب. وقد صادفت الترجمة حماسا جماهيريا منقطع النظير كان لا يزال يحتفل بانتصار الثورة الجزائرية.

كاتب آخر يعد من كتاب الرواية الجزائرية بالفرنسية إنه مولود معمري الذي نشر" الربوة المنسية" La colline oublié 1952 تبتدئ وقائع الرواية في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، لتصور الوضع في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، ويعبر الكاتب عن مآسي الشعب وأحزانه وبؤسه. إنها فترة اليأس والقنوط بدون إمكانية للعثور على حل، لأن الاستعمار لا يقدم حلولا، وأيا كان الأمر فإن بوادر الأمل بدأت تلوح، كنتيجة للتغيرات التي طرأت على الوضع السياسي في الجزائر.

أما رواية" الأفيون والعصا" L'opium et le bâton والتي نشرت 1955 التي تمثل ظاهرة بالغة الأهمية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في عهد الاستقلال، وهي أول نتاج أدبي عن الرواية الجزائرية. وقد تميزت أعمال مولود معمري بشكل عام بمسايرتها للوقائع السياسية، إضافة إلى تصوير المجتمع القبائلي بكل خصائصه، كما تناول الثورة التحريرية التي انخرط فيها، فقد صور بعمق تلك المعاناة النفسية التي عاشها الفرد الجزائري العادي والفرد المثقف والبرجوازي الصغير أمام تلك التجربة.

والشيء نفسه ربما يكون قد فعله مالك حداد مع بعض الخصوصيات، التي رافقته طوال حياته، فمن" رصيف الأزهار لا يجيب"– إلى" سأهبك غزالة" Je t'offrirai une gazelle إلى" الشقاء في خطر" ظل حداد يحمل مأساته المزدوجة، وربما بحس يختلف عن الآخرين، هذا الهم المزدوج" الاستعمار واللغة" هو الذي حدد مسار كل أعماله. فبالرغم من مأساة اللغة ظل هذا الأديب نقياً، يعبر عن هموم وطنية وقومية وإنسانية، برؤية تقدمية في شكلها العام، بعيدة عن كل روح شوفينية متعصبة، الأمر الذي ساعده على عدم السقوط في التعميم والغموض، مثل بعض الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر.

تتمثل الرؤية الأكثر عاطفية تجاه ثورة التحرير في أعمال مالك حداد فهي تعتبر مجموعة من العواطف والأحاسيس أكثر منها مجموعة للأفكار والآراء. تشكل رواياته قصائد شعرية، تظهر فيها من حين لآخر تصريحات وطنية وحماسية، وهو ينظر إلى الحدث كشاعر بقلبه قبل فكره. الحقيقة أن مالك حداد له مفهومه الخاص للالتزام، ففي روايته" سأهبك غزالة" يروي قصة حب بين سائق شاحنة وفتاة شابة، تعيش في الواحة التي يتوقف فيها السائق ليستريح، وهو في رحلته عبر الصحراء. فالكاتب في رأي حداد لا يلتزم إلا بشخصيات رواياته. لكنّه لم يهمل ثورة التحرير والمجاهدين، الذين كانوا يقاتلون من أجل أن يحققوا السعادة والخير لشعبهم، أو من أجل الغزلان[12]. وتكاد تجسد رواية" التلميذ والدرس" L'élève et la leçons لمالك حداد أعمق الوثبات الفنية للمتناقضات الدامية، التي يكتوي بها وجدانه. والشكل الفني نفسه يكاد ينطق بغلبة الدماء الجديدة، ومالك حداد يبدأ صياغته من الكلمة فالجملة إلى بقية النسيج الروائي، ولا يفعل العكس: أن يصمم هيكلاً روائياً للأحداث والشخصيات والمواقف، ثم يملأه بالكلمات. أي أن الشاعر ببساطة يسيطر على الروائي. وتكاد الرواية في كثير من المواضع

تتحول إلى قصيدة شعرية. وهذا يفسر أن البناء الذي انتهت إليه هو" المونولوج" ف " التلميذ والدرس" في جوهرها مونولوج طويل، فنحن لا نتعرف طوال الرواية إلا على شخصية واحدة لهذا الطبيب الجزائري الكهل، القاطن في إحدى المدن الفرنسية، وحيداً بعد أن ماتت زوجته. والمفارقة الروائية التي ينطلق منها حداد هي أن الطبيب– الأب– حريص على إبقاء حفيده بين أحشاء الابنة– المناضلة– التي قصدته راغبة في الإجهاض. يكشف لنا حداد عن رمز البطولة في المقاومة الجزائرية، من خلال هذه الرواية.(13) وضع حداد في روايته الأب وابنته وجهاً لوجه، الابنة التي تعمل في صفوف المقاومة. ومثل هذه المواجهة، تعتبر مظهراً آخر لصراع الأجيال، الذي تجلى واضحاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وفي الواقع فإنّ رواية مالك حداد هذه تعتبر أفضل رواياته وهي أكثرها تماسكاً وحيوية ومحتوى، بالرغم أن الدور الكبير يتركز في معظمه على مشاعر الوالد وهو يفكر ويتأمل سلوك ابنته. لقد اختار مالك حداد منذ الوهلة الأولى أن يكون " المنفى" هو المهاد الذي يبذر فيه رموزه، واختار أيضاً" جيل المنفى" في الصغيرة المعبرة عن رؤيا المقاومة في رواية" التلميذ والدرس". يقدم إبداع مالك حداد فكرة عن الدرجة النوعية الجديدة التي ارتقت إليها الرواية الواقعية الجزائرية. وقد صادف إبداعه برمته فترة الحرب، إذ أن المؤلف لم ينشر أي كتاب بعد انتزاع الاستقلال. وتنقل مؤلفات مالك حداد واقعاً جديداً إذا ما قورنت بإبداع كتاب التقاليد والعادات. وقد كرست رواياته للعالم الداخلي للبطل المثقف، أو لذلك الإنسان الذي إن لم يكن مماثلاً للمؤلف، فهو على أية حال شديد الشبه به روحياً. ولا يمكن التأكيد أن سيرة أبطال حداد تفتقر إلى الأحداث الدرامية بصفة خاصة، فكل واحد منهم يشعر بشكل أو بآخر بآلام قاسية، كموت القريب أو انهيار الآمال الشخصية. غير أن هذه الأحداث لا تلفت في حد ذاتها انتباه الكاتب، وهي فقط ضريبة حتمية، يدفعها للزمن كل واحد من مواكبيه في تلك السنوات، التي أصبح فيها مفهوم الجزائري– كما يقول الكاتب نفسه مرادفاً للشقاء. إنّ موضوع مالك حداد هو الحياة الروحية للشخصية، التي تنطوي على قدرة فائقة على معارضة هجوم القوى الهدامة والمعادية للإنسان. وهذه القدرة لا تتجلى في أحداث خارجية باهرة تسترعي النظر، لأن بطل مالك حداد يحوز انتصاراته في الحياة اليومية غير المحسوسة، وهذا لا يحط بتاتاً من مغزاه. وعادة ما تتكشف أمام بطل مالك حداد إمكانية سلوك الطريق السهل، والرفاهية

الشخصية على حساب تسوية مع ضميره الخاص، غير أن البطل يرفض بحزم سلوك هذا الطريق. ويوافق تماماً الأسلوب الإبداعي للكاتب محتوى مؤلفاته، التي يبرز فيها تعقد الحياة الاعتيادية وغير المحسوسة، والبساطة الأزلية اليومية، كما يفتقد سرده إلى الزخرفة الأسلوبية والفصول المطول.

دارت روايات مالك حداد حول الثورة الجزائرية، وتلمسها من قريب ومن بعيد في دوامة من المشاعر والعواطف، فشخصية الكاتب والثورة تشكلان نبعاً غزيراً لرواياته، وحب الوطن يقوم بمثابة رباط الحياة، الذي يربط كافة الحوادث ببعضها بعضاً يبرز حداد في رواياته كاتب شعر أكثر منه كاتب قصة. فقد تأثر بالشاعر الفرنسي " أراغون"، وكذلك بالفيلسوف" برغسون" الذي ترك أثراً واضحاً على أعماله.

أما كاتب ياسين فقد ولد في السمندو قرب قسنطينة عام 1929 وهو مؤلف رواية" نجمة" التي نشرت سنة 1956 والتي تعتبر أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة، وقد استقبل النقاد والمفكرون الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة، كما اعتبروا مؤلفها أحسن من يمثل مدرسة إفريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوروبيين.[14]

فكاتب ياسين يحظى باحترام النقاد الغربيين والعرب على حد سواء ومرد هذا الاحترام العمل الروائي المتميز" نجمة" Nedjma وتنبع أهمية هذه الرواية من أنها تجسيد لرحلة العذاب التي خاضها كاتبها ووطنه جميعا. إنها تجسد شكلا ومضمونا كافة مراحل التطور، ومختلف أشكال التناقضات واتجاهات الصراع ونتائجه التي انتهت إليها الرحلة الدامية، لقد حققت درجة عالية من الدينامية في العمل الفني.

تبنى كاتب ياسين موقفا متميزا في كتاباته، فهو يبحث عن الموطن الأم، مشخصا إياه في امرأة يسميها" نجمة" وتصبح الجزائر حقيقة مجسدة، وتكون" نجمة" بذلك روح البلاد التي تسري والحادثة التي أثرت تأثيرا بالغا على أعمال كاتب ياسين الأدبية هي مذابح سطيف. إنّ نجمة بطلة الرواية الهاربة تمثل الجزائر الجديدة نفسها. ولعله من الهام أن نلاحظ الدور الذي أعطاه المؤلف لفرنسا في خلق هذه الشخصية الجديدة، وقد قال كاتب ياسين:" إن نجمة هي روح الجزائر الممزقة من البداية والمهدورة بشتى التوترات الداخلية" فنجمة الغائبة والحاضرة دائما هي التي يلاحقها أربعة أبطال(رشيد، الأخضر، مراد ومصطفى) ومغامرات هؤلاء في البحث عنها تشكل إطار الرواية. غير أنّ الرّواية تعرض أيضا المظالم السياسية والاقتصادية في الجزائر.[15]

الخاتمة:

هكذا كانت الكتابة باللغة الفرنسية عاملا حاسما في بلورة الهوية الوطنية في صراعها المستمر مع الاستعمار، باقتراب المحاولات الروائية والقصصية الأولى لمحمد ديب وكاتب ياسين ومولود فرعون من البعد العميق في الهوية الجزائرية التي ظلت طي النسيان. لقد تحولت المنظومة اللغوية إلى أداة حقيقية للصراع الثقافي بين المستعمر الذي تمظهر في أشكال الكتابة التي حاولت تزييف القيم الوطنية ومن هنا تبدو المغالطة فاضحة، تلك التي سارع إليها البعض من الطبقة المعربة لنفي كل ما ليس مكتوبا باللغة العربية على أساس أنه أدب غير جزائري بعيد عن الهوية الوطنية التي تعتمد على البعد اللغوي لتحقيق الانتماء للوطنية الجزائرية وهو فهم يعوزه الفهم الكبير لأهمية الخطاب الروائي المكتوب باللغة الفرنسية، لكنّ سؤال التاريخ لم يعد له مبرر اليوم فقد انقشع الاستعمار ولم يعد له حضور في الفضاء وإن بقي ثابتا في المتخيل وهي الإشكالية التي يدور حولها النقاش اليوم [16].

لقد أصبح مستحيلا مناقشة المسألة اللغوية دون الرجوع إلى هذه الخلفيات المتراكمة من تاريخ تشكل النص الروائي الجزائري، وبقيت الرواية العربية إلى وقت قريب في الجزائر على الهامش لم تلق ذلك الصدى الذي لقيته الرّواية المكتوبة باللغة الفرنسية، هنا لا يمكن استبعاد القيم المتداخلة في الخطاب الأدبي، فهناك الأبعاد الفكرية والثقافية والسياسية.

الهوامش:

(1) أبوالقاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط 5، 2007، ص: 22.

(2) عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1994، ص: 41.

(3) من مقدمة ثلاثية محمد ديب: النول، الحريق والدار الكبيرة، ترجمة سامي الدروبي، الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دون طبعة، 1985، ص: 5.

(4) المرجع نفسه، ص: 6.

(5) المرجع نفسه، ص: 6.

(6) محمد خضر سعاد: الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت، دون طبعة، ودون تاريخ، ص: 205.

(7) المرجع نفسه، ص: 85.

(8) آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية، من المتماثل إلى المختلف، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، ط 2، 2011، ص: 52.

(9) المرجع نفسه، ص: 53.

(10) من مقدمة هابيل: محمد ديب، ترجمة أمين الزاوي، المكتبة الوطنية الجزائرية، وهران، الجزائر، دون طبعة 2007، ص: 3.

(11) أبوالقاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 98.

(12) Malek Haddad:Je t'offrirais une gazelle, Paris, Julliard,1959,P:30

(13) Malek Haddad L élève et la leçons ,Paris, Julliard, 1960,P :38

(14) المرجع نفسه، ص: 102.

(15) المرجع نفسه، ص: 102/ 103.

(16) علال سنقوقة: الرواية الجزائرية وإشكالية اللغة، بين رواسب التاريخ وإرادة التواصل مع الآخر، الموقع الإلكتروني: http//allal-sansouga.com